الحداد والميلانكوليا

مقال لـ سيجموند فرويد من ضمن مقالات في الميتاسكولوجي، ١٩١٥

ترجمة السيد البدوي فتحي صديق

لقد خدمتنا الاحلام عندما اتخذناها نموذجا أوليا، في الحياة السوية، للاضطرابات النفسية النرجسية، وسوف نحاول الآن وهاهنا أن نلقي بعض الضوء على طبيعة وجوهر الميلانكوليا وذلك من خلال مقارنتها بالوجدان الطبيعي السائد في حالة الحداد (يمكن لكلمة الحداد أن نعني كما وجدان الحزن وتبدياته الخارجية). ومع ذلك، ينبغي علينا أن نبدأ هذه المرة بطرح إعتراف وتسليم، كتحذير مسبق ضد أي مبالغة في تقدير قيمة استنتاجاتنا. إن الميلانكوليا، التي يتقلب تعريفها ويتذبذب حتى في الطب النفسي الوصفي، إنما تتخذ لها أشكالًا سريرية (كلينيكية) مختلفة، لا يبدو أن تجميعها معًا في كل واحد قد تم تأسيسه بشكل راسخ؛ وخاصة أن بعض هذه أشكالها تشير إلى وجود إنفعالات وتأثيرات جسدية بأكثر منها نفسية. وبصرف النظر عن الانطباعات المتاحة لكل ملاحظ، فإن المادة المتوفرة بين ايدينا تقتصر على عدد قليل من الحالات التي لا جدال بشأن طبيعتها نفسية المنشأ. لذلك، يجب علينا منذ البداية أن نتخلى عن كل ادعاء بالصحة العامة لاستنتاجاتنا، وسوف نعزي أنفسنا بالإشارة إلى أنه يمكننا بالكاد، مع وسائل التحقيق والتقصي المتاحة لنا اليوم، اكتشاف ماهو نموذي وغير عادي، حتى وإن لم يكن يصنف بشكل عام ضمن فئة من فئات الاضطرابات، على الأقل بالنسبة لمجموعة صغيرة منها.

ويبدو أن الربط بين حالتي الميلانكوليا والحداد يمكن تبريره من خلال الصورة العامة للحالتين (لقد اتخذ إبراهام (١٩١٢)، الذي ندين له بأهم الدراسات التحليلية القليلة حول هذا الموضوع، هذه المقارنة كنقطة انطلاق له. [كان فرويد نفسه قد أجرى المقارنة بالفعل في عام ١٩١٠ وحتى قبل ذلك]. علاوة على ذلك، فإن الأسباب المحفزة التي تقف خلف كليهما والناتجة عن التأثيرات البيئية، بقدر ما نستطيع أن نتبينها على الإطلاق ونميزها، هي هي نفسها في كلتا الحالتين. إن الحداد عادة ما يكون رد فعل على فقدان شخص عزيز (محبوب)، أو على بعض الأفكار المجردة التي حلت محل الشخص، مثل وطنه، أو حريته، أو مثله الأعلى، وما إلى ذلك. ولكن قد يظهر عند البعض من الناس، ممن إمتلك أستعدادا مرضيا، حالة من الميلانكوليا، نتيجة نفس التأثيرات، بدلاً من الحداد، ولذلك يتشابه علينا الامر ونشك في أنهم في حالة مرضية. ومن الجدير بالذكر أيضًا أن نلاحظ أنه، على الرغم من أن الحداد ينطوي على خروج جدي وبُعد خطير (انحرافات شديدة) عن موقف الحياة الطبيعي، إلا أنه لا يخطر ببالنا أبدًا أن ننظر إليه كحالة مرضية وان نعمل على إحالته إلى العلاج الطبي. ونعتمد على أن التغلب عليه أمر وارد بعد فترة زمنية معينة، كما نعتبر أن أي تدخل من شأنه أن يكون عديم الفائدة أو حتى ضارًا.

إن الملامح والسمات العقلية المميزة للميلانكوليا تتمثل في وجود حالة من الكآبة العميقة والمؤلمة للغاية، وتوقف الاهتمام بالعالم الخارجي، وفقدان القدرة على الحب، وتثبيط في كل الأنشطة، وإنخفاض في مشاعر تقدير-الذات إلى درجة تجد تعبيرًا لها في توبيخ النفس وشتمها

وإهانتها، وتبلغ أوجها بالبلوغ إلى حد التوقع الهذائي بالعقوبة. إن هذه الصورة تصبح أكثر وضوحا الي حد ما عندما نعتبر أن نفس هذه السمات، مع استثناء واحد وحيد، هي ما نلقاها في الحداد. إن اضطراب احترام الذات وتقديرها يكون غائبا في الحداد؛ ولكن فيما عدا ذلك تكون الملامح هي نفسها. إن الحداد العميق، ردة الفعل لفقدان شخص ما يكون محبوبا، يتضمن نفس الحالة الذهنية المؤلمة، ونفس فقدان الاهتمام بالعالم الخارجي – طالما انه لا يُذكر بالفقيد - ونفس فقدان القدرة على احتضان أي موضوع حب جديد (الامر الذي قد يعني إختيار بديل للموضوع المفقود)، ونفس العزوف والامتناع عن أي نشاط من شأنه الا يكون مرتبطا بالتفكير في الفقيد. إن من السهل أن نرى أن هذا التثبيط (الكف) والتقييد الحاصل للأنا ليس سوي تعبير عن التكريس الحصري والتسليم للحداد الذي لا يترك شيئًا لأي أغراض أو مقاصد أو إهتمامات أخري. وحقا فقط ولهذه الاسباب وحدها نحن نعرف جيدًا كيف نفسر إن هذا الوضع لا يبدو لنا مرضيًا (باثولوجيا).

إن علينا أن ننظر الي هذا كونه مقارنة مناسبة، أيضًا، لوصف الحالة الوجدانية للحداد ونعتبرها حالة "مؤلمة". وربما سنرى مبررًا لذلك عندما نكون في وضعية تسمح لنا بإعطاء توصيفا مميزا لاقتصاديات الألم.

والآن، ما هو العمل الذي يقوم به الحداد؟ أنا لا أعتقد أن هناك أي شيء بعيد المنال في تقديمه على النحو التالي. لقد أظهر اختبار-الواقع أن الموضوع-المحبوب لم يعد موجودًا، وإنه يستمر يطالب بأن يتم سحب كل الطاقة الليبيدية من ارتباطاتها بهذا الموضوع. ويثير هذا الطلب معارضة يمكن أن تكون مفهومة- ومن الجدير بالملاحظة عموماً أن الانسان لا يتخل أبداً عن وضعية ليبيدية عن طيب خاطر، وحتى لو كان هناك بديلا مغريا يلوح في الافق. ومن الممكن أن تكون هذه المعارضة شديدة لدرجة أنة يتم معها الابتعاد والعزوف عن الواقع وايضا ضربا من التشبث بالموضوع من خلال وساطة حالة ذهانية مرغوبة ذات طابع هلوسي. وعادة، ما يفوز هو احترام الواقع ويفرض نفسه. ومع ذلك، لا يمكن إطاعة أوامره دفعة واحدة. وإنما يتم ذلك شيئًا فشيئًا، وبتكلفة باهظة من الوقت ومن الطاقة المستثمرة، علما إنه في هذه الأثناء يستمر يبقي الموضوع المفقود قائما نفسيًا. إن كل ذكري من الذكريات والتوقعات التي كان فيها الليبيدو مرتبطا بالموضوع يتم جلبها وزيادة شحنها، ويتم العمل على فك ارتباط الليبيدو المتعلق بها (يبدو إن هذه الفكرة قد تم التعبير عنها بالفعل في دراسات في الهستيريا (١٨٩٥): سوف يجد المرء عملية مشابهة وقريبة لها موصوفة بالقرب من بداية "مناقشة" فرويد لتاريخ حالة السيدة إليزابيث فورلين فون ر. (الطبعة المعيارية، الكتاب ٢، ص. ١٦٢). ليس من السهل اطلاقا أن نفسر الأسباب التي تجعل هذه التسوية التي يتم بها التطبيق المحكم لأمر الواقع وإملاءاته مؤلمة للغاية من الناحية الاقتصادية. إن من اللافت للنظر أن هذا الاستياء المؤلم يبدو لنا أمرا طبيعيا. ومع ذلك، فإن الحقيقة هي أنه الانا، عندما يتم الانتهاء من عمل الحداد، تصبح حرة طليقة وغير مقيدة مرة أخرى.

لعلنا الآن نطبق على الميلانكوليا ما تعلمناه بشأن الحداد. في مجموعة من الحالات، كان بديهيا أن الميلانكوليا قد تكون هي أيضًا ردة فعل لفقدان موضوع محبوب. وعندما تكون الأسباب المحفزة مختلفة، يمكن للمرء أن يدرك أن هناك ثمة خسارة أو فقدان لنوع أكثر مثالية. وربما لم

يكن الموضوع مات فعليًا، بل تمت خسارته وتم فقدانه باعتباره موضوع حب (على سبيل المثال، في حالة هجر فتاة مخطوبة تم فسخ خطوبتها). وفي حالات أخرى، يشعر المرء بأن هناك ما يبرر التشبث باعتقاد مفادة أن ثمة فقد وخسارة من هذا النوع قد حدثت، الا أن المرء لا يمكنه أن يرى بوضوح ما تم فقدانه، وربما كان من المعقول أكثر هو افتراض أن المريض لا يمكنه أن يدرك شعوريا ما الذي فقده تماما. وفي واقع الامر، قد يكون هذا هو الحال بالفعل حتى لو كان المريض على علم وبينه بالخسارة التي أدت به إلى الميلانكوليا، ولكن فقط بالمعنى الذي فيه يعرف **من هو ذا** الذي فقده ولكنه لايعرف **ماذا فقد** بفقدانه. إن هذا قد يفترض أن الميلانكوليا يمكن عزوها على نحو ما الي فقدان-موضوع ما لا يطاله الوعي (مسحوب من الوعي وخارجه)، في تمييز معاكس عن الحداد، الذي لا علاقة له البتة بالفقد الذي يكون لاشعوريا.

لقد وجدنا أن الكف وفقدان الاهتمام في الحداد يتم حسابهما بشكل كلي من خلال فعل الحداد الذي فيه تكون الانا مستوعبة وممتصة. وفي حالة الميلانكوليا، فإن الخسارة غير المعروفة من شأنها أن تفضي وتؤدي إلى عمل داخلي مماثل، وبالتالي ستكون مسؤولة عن الكف الميلانكولي. الفرق هو أن الكف لدي الشخص الميلانكولي يبدو لنا محيرًا لعدم قدرتنا على تصور ما هو هذا الذي يستوعب ويمتص المرضي بشكل كامل. إن الشخص الميلانكولي يظهر لنا شيئًا آخرا إلى جانب ما هو مفقود وغائب في حالة الحداد- وهو الانخفاض والافتقار غير العادي في احترام الذات، ضرب من إفقار الأنا لديه على نطاق واسع. ففي حالة الحداد، يكون العالم هو الذي قد أصبح فقيرًا وفارغًا؛ أما في حالة الملانكوليا فإن الانا ذاتها تغدو فقيرة وفارغة. إن المريض يصف لنا الانا لديه على أنها بغيضة لا قيمة لها وغير جديرة، وعاجزة غير قادرة على أي إنجاز، ومحتقرة أخلاقيًا ودنيئة؛ إنه يوبخ نفسه ويهينها، ويلعن نفسه، ويتوقع الطرد والعقاب. إن الميلانكولي يُذل نفسه ويتذلل أما كل شخص ويتعاطف مع كل من هو قريب منه لارتباطه بشخصه البغيض. إنه لا يرى أن أن هناك تغييراً قد وقع له، بل يمتد نقده لذاته ويضرب بجذوره في الماضي؛ يعلن مدعيا أنه لم يكن يوما ما أبدا في حال أفضل. إن هذه الصورة التي تحمل ضربا من وهم وضلال الدونية (الأخلاقية بالدرجة الأولى) تكتمل بالأرق ورفض تناول الطعام وعدم الأكل، و- الأكثر لفتًا للنظر من الناحية النفسية – هو العمل على التغلب على الغريزة الفطرية التي تجبر كل كائن حي أن يتشبث بالحياة لبعيش.

سيكون من غير المجدي علميا وعلاجيا على حد سواء أن نعارض وجهة نظر المريض الذي يوجه هذه الاتهامات ضد الانا لديه. ومن المؤكد أنه يري إنه على حق على نحو ما وان ما يقوم بوصفة وما يسرده هو ما يجول بخاطرة وما يبدو له. وبالفعل، يجب علينا أن نؤكد على الفور بعضا من تصريحاته دونما تحفظ. إنه حقًا، وكما يقول، يفتقر إلى الاهتمام وإنه غير قادر على الحب والإنجاز (بذل الجهد). ولكن هذا، وكما نعلم، يعد أمرا ثانويا؛ إنه أثر العمل الداخلي الذي يستهلك الانا لديه ويستنزفها- عمل هو غير معروف لنا ولكنه عمل يمكن مقارنته بعمل الحداد. إن المريض يبدو لنا أيضًا أنه محقا ولديه تبريرا في بعض الاتهامات الأخرى الموجهة ضد الذات؛ إنه فقط يتمتع برؤية أكثر حرصًا على الحقيقة من الأشخاص الآخرين الذين لا يعانون من الميلانكوليا. فعندما يريد أن يوجه نقده اللاذع الشديد لذاته فإنه يصف نفسه بأنه شخص تافه وأناني وغير أمين ويفتقر إلى الاستقلالية (منقاد)، وشخص هدفه الوحيد إخفاء مواطن ونقاط

ضعف طبيعته الخاصة به، وربما يكون الامر قد بلغ به الي أن بات قريبا جدا، على حد علمنا، من فهم نفسه ومعرفة ذاته؛ نحن هنا نتساءل فقط لماذا يجب على المرء أن يقع صريع المرض اولا حتى من قبل أن يتمكن من الوصول إلى حقيقة من هذا النوع. ولأنه لا يمكن أن يكون هناك أدني شك في أنه إذا كان من إنسان يحمل رأيًا في نفسه ويعبر عنه للآخرين كمثل هذا (الرأي الذي كان لدى هاملت عن نفسه وعن كل شخص آخر)، فهو انسان مريض، سواء آكان يتحدث عن حقيقة أو ما إذا كان يبدو غير عادل وظالم لنفسه إلى حد ما. كذلك ليس صعبا أن نرى أنه لا يوجد من تطابق أو تكافؤ، حسبما نري وبقدر ما نستطيع الحكم، بين قدر تحقير الذات ومبرره الحقيقي. لن تتحدث المرأة الصالحة القادرة ذات الضمير الحي عن نفسها بعد إصابتها بالميلانكوليا على نحو أفضل من امرأة هي في الواقع لا قيمة لها وغير جديرة بالاحترام؛ ففي الواقع، ربما تكون المرأة الأولي أكثر عرضة للإصابة بالمرض من الثانية، والتي بشأنها نتوجس خيفة ولا يتعين أن نقول عنها شيئا هي الاخري. وأخيرا، يجب أن يذهلنا بعد كل ذلك شيئا ما حيث تجدر الإشارة إلى أن الشخص الميلانكولي لا يتصرف بنفس الطريقة التي يتصرف بها الشخص الذي يسحقه الندم ولوم الذات بطريقة طبيعية. إن مشاعر الخزي أمام الآخرين، والتي تتميز بها هذه الحالة الأخيرة أكثر من أي شيء آخر، غير موجودة ومفقودة لدى الشخص الميلانكولي، أو على الأقل لا تكون بارزة لديه. ويمكن للمرء أن يؤكد أن لديه ثمة صفة معاكسة تقريبًا تتمثل في العملية التواصلية الحازمة التي تجد لها إشباعا ورضا في فضح الذات وكشفها.

وبالتالي، فإن القضية الاساسية بالنسبة للشخص الميلانكولي لا تدور حول مدي صحة التشويه المؤلم الضاغط للذات، بالمعني الذي فيه يتوافق نقده الذاتي مع آراء الآخرين ووجهة نظرهم. بل بالحري ينبغي أن تكون النقطة المستهدف حول ما إذا كان يعطي وصفاً صحيحاً لحالته النفسية ام لا. لقد فقد احترامه لذاته ويجب أن يكون لديه سببا وجيها لذلك. إنها لحقيقة حقة هي إننا نكون إذن أمام تناقضًا يطرح معضلة يصعب حلها. إن القياس على الحداد يقودنا إلى استنتاج مفادة أن الميلانكولي يعاني من فقد وخسارة شيء ما يتعلق بموضوع ما؛ إن ما يقوله لنا ويخبرنا به يشير إلى فقد وخسارة لشيء ما يتعلق بالانا لديه.

ومن قبل أن نشغل انفسنا ونذهب للدخول في هذا التناقض، لعلنا نتوقف للحظة عند الرؤية التي يقدمها اضطراب المريض الميلانكولي بشأن تكوين الانا الانسانية. نحن نرى لديه كيف أن جزء من الأنا يُنصب نفسه ويقف في معارضة ضد الجزء الآخر، ويحكم عليه بشكل ناقد، وعلى ما يبدو يتخذ منه موضوعا له. إن شكوكنا بأن القوة النقدية التي قد إنفصلت هنا عن الأنا وانشقت قد تُظهر أيضًا استقلاليتها (الانا) في ظروف أخرى سوف تؤكدها كل الملاحظات الضافية. وسوف نجد بالفعل أسبابًا وخلفيات لتمييز هذه الوكالة عن بقية الأنا. إن ما نحن بصدده هنا وما نتعرف عليه هو تلك القوة أو الوكالة من الانا التي يُطلق عليها غالبًا إسم "الضمير"؛ وسوف نعتبره، جنبا إلى جنب مع الرقابة التي يمارسها الوعي واختبار- الواقع، من بين المؤسسات الرئيسية للانا، وسوف نبلغ الي التعريج على الدليل الذي يُظهر أن الانا يمكن أن تصبح مرضية وتعتل علي حسابها الخاص ومن تلقاء نفسها. إن من الصور السريرية (الكلينيكية) للميلانكوليا تبرز صورة الازدراء وعدم الرضا عن الانا لأسباب أخلاقية. إن التقييم الذاتي للمريض لا يتعلق

كثيرا بالعجز الجسدي، أو القبح، أو الضعف أو الدونية الاجتماعية؛ ففي هذه الفئة، فقط مخاوفه وتأكيداته من أن يصبح فقيرًا هي التي تبرز وتشغل مكانة بارزة.

وهناك ثمة ملاحظة واحدة، وهي ليست صعبة علي الامساك إطلاقا، حيث تقودنا إلى تفسير التناقض المذكور أعلاه (والتي هي ليست سوي ملاحظة واحد فقط وموجود في نهاية الفقرة الأخيرة). فإذا ما استمع المرء بصبر وأناة وأحسن الانصات إلى الاتهامات الذاتية وضروب الشجب المتنوعة لدي الشخص الميلانكولي الكثيرة والمتنوعة، فإنه لن يتمكن في النهاية من أن يتجنب الانطباع الذي مفاده أن أعنفها في كثير من الأحيان والاقسي منها لا ينطبق على المريض نفسه، ولكن مع إدخال تعديلات طفيفة تناسب شخصًا آخر، شخصا ما يحبه المريض أو أحبه أو ينبغي عليه أن يحبه. وفي كل مرة يتفحص فيها المرء الوقائع، يتأكد هذا التخمين. وبذلك يكون المرء قد حصل على مفتاح الصورة السريرية للمرض: ندرك ونعي أن توبيخ الذات واهانتها ما هو الا توبيخ ضد الموضوع المحبوب وبدلا من أن يكيله الي الموضوع المحبوب أصبح يوجهه الي الانا الخاص به وعازفا عن الموضوع المحبوب.

إن المرأة التي تُشفق على زوجها بصوت عالٍ كونه مرتبطا بهكذا زوجة عاجزة مثلها لهي في الواقع تريد أن تتهم **زوجها** بأنه عاجز غير قادر، ايا كان معنى ما تقصده بهذا. لا داعي للدهشة عندما نرى بعضا من التوبيخ الذاتي الحقيقي الموجه للذات يكون منتشرًا على نطاق واسع بين أولئك الذين تم نقلهم مرة أخري. وإذا ما سُمح لهم بأن يتجاهلوا أنفسهم، فذلك لأن هذه الاعراض تساعد في إخفاء اتهامات أخري وجعل الالمام بالحيثيات والتعرف على الحالة الحقيقية أمرا مستحيلاً. كما أنهم يستمدون من إيجابيات وسلبيات صراع الحب هذا الذي يقود الي فقدان الحب. لقد أصبح سلوك المرضى الان هو الاخر أكثر وضوحًا. فشكواهم هي في الواقع "أنين" بالمعنى القديم للكلمة. إنهم لا يخجلون ولا يخفون أنفسهم (يتوارون)، لأن كل ما يقولونه بشكل مهين عن أنفسهم هو في جوهره يُقصد به في واقع الامر شخص آخر. علاوة على ذلك، فإنهم بعيدون كل البعد عن أن يظهروا لمن حولهم موقف التواضع والخضوع الذي لا يليق الا بمثل هؤلاء الأشخاص البغيضين عديمي القيمة. وعلى العكس من ذلك، فإنهم يتسببون في أكبر قدر من الإزعاج لأنفسهم، ويبدو أنهم دائمًا يشعرون بالإهانة والمعاملة غير العادلة. كل هذا ممكن فقط لأن ردود الفعل المعبر عنها في سلوكهم لا تزال تنطلق من التركيبة النفسية للتمرد، والتي بعد ذلك، من خلال عملية معينة، تنتقل إلى حالة من الميلانكوليا الساحقة.

ليس هناك من صعوبة في إعادة بناء هذه العملية ومتابعة الكيفية التي تتم بها. فإختيار-الموضوع، ربط الليبيدو بشخص بعينه، كان قائما متواجدا وقد وقع في وقت ما؛ ثم، بسبب خيبة أمل طفيفة أو حقيقية أتية من جانب هذا الشخص المحبوب، تتحطم العلاقة- بالموضوع. ونتيجة ذلك لا تكون هى النتيجة الطبيعية التي تتمثل في سحب الليبيدو من هذا الموضوع ويتم إزاحته ونقله إلى موضوع جديد، بل ما يحدث هو شيء ما مختلف؛ شيء ما يبدو أن مجيئه يتطلب بالضرورة شروطا متباينه. لقد ثَبت أن شحن-الموضوع لا سلطان له علي المقاومة الا قليلا وكان قد شارف على الانتهاء وتم فك ارتباطه. غير أن الليبيدو الطليق الحر عن عمليه فك الارتباط هذه لم يتم ازاحته وتحويل مجراه نحو موضوع أخر: لقد تم سحبه ونقله الي داخل الانا. ومع ذلك، لم يتم توظيفه هناك على النحو المحدد، ولكن يتم توظيفه ليخدم ويساعد في تأسيس وخلق **تعيين**

للانا مع الموضوع المهجور. وهكذا يقع ظل الموضوع ويسقط على الانا، بحيث يتم من الان وصاعدا إصدار الحكم على هذه الأخيرة (الانا) بقوة نوعية خاصة، كما لو كانت هذه الانا هي الموضوع، الموضوع المهجور. وبهذه الطريقة يتحول فقدان-الموضوع إلى فقدان-الانا، ويتحول الصراع بين الأنا والشخص المحبوب الي صراع بين نشاط نقدي للانا والانا المتغيرة كونها تبدلت بفعل **التعيين**.

هناك امر أو أمران يمكن استنتاجهما بشكل مباشر بشأن الشروط المسبقة لمثل هذه العملية والآثار المترتبة عليها. فمن ناحية، يجب ان يكون هناك ضربا من التثبيت (التعلق) القوي على الموضوع المحبوب؛ ولكن، من ناحية أخرى، وعلى النقيض من ذلك، يجب أن يكون **سلطان قوة شحن- الموضوع على المقاومة قليلا**. وكما لاحظ أوتو رانك وفق ملاحظة صائبة اوردها، فإن هذه المفارقة تشير ضمنًا إلى أن اختيار-الموضوع كان قد تم وتأسس وقام على أساس نرجسي، بحيث يمكن لشحن-الموضوع، عندما تظهر عقبات في طريقه، أن ينكص مرتدا إلى النرجسية. آنذاك يصبح التعيين النرجسي مع الموضع بديلاً يحل محل الشحن الجنسي (الايروسي)، وتكون النتيجة هي وجوب عدم التخلي عن علاقة-الحب، حتي على الرغم من وجود صراع مع الشحص المحبوب. إن مثل هذا الاحلال في التعيين محل حب-الموضوع يعد ميكانيزما هاما في الوجدانات النرجسية؛ ولقد تمكن كارل لانداور Karl Landauer (١٩١٤) مؤخرًا من الإشارة إلى ذلك في عملية تعافي حالة فصامية. وبطبيعة الحال، يمثل هذا ضربا من النكوص عن أحد أنماط اختيار-الموضوع إلى حالة النرجسية الأصلية (الاولية). لقد كنا قد أظهرنا في مكان آخر أن التعيين هو مرحلة تمهيدية لاختيار-الموضوع، أي إنه هو السبيل الأول – أي إنه يتم التعبير عنه في إسلوب متناقض - الذي فيه تلتقط الانا موضوعًا ما. إن الانا تريد أن تلتهم (تستدخل) هذا الموضوع في نفسها، وتريد، وفقًا لما يتواجد في المرحلة الفمية أو الالتهامية من التطور الليبيدي، أن تفعل ذلك من خلال التهام الموضوع وبلعه في الفم. ولا شك أن كارل ابراهام على حق في عزو هذا الارتباط إلى رفض تناول الطعام الذي يصاحب الحالة الحادة من الميلانكوليا.

إن الاستنتاج الذي تقتضيه نظريتنا- وهو تحديدا، ان الاستعداد الي السقوط في الميلانكوليا (أو جزء من هذا الاستعداد) يكمن في هيمنة الطابع النرجسي في اختيار- الموضوع- لم يتم تأكيده بعد لسوء الحظ من خلال الملاحظة والبحث والدراسه. وفي الملاحظات الافتتاحية لهذه الورقة، قد سلمت بأن المادة التجريبية (الامبيريقية) التي تقوم عليها هذه الدراسة غير كافية لاحتياجاتنا ولا تحقق إدعاءاتنا. وإذا ما استطعنا أن نفترض أن هناك اتفاقًا بين نتائج الملاحظة وما قد استنتجناه، فلا ينبغي لنا أن نتردد في تضمين هذا النكوص من شحن- الموضوع إلى المرحلة الفميه النرجسية الباقية لليبيدو في توصيفنا التمييزي للميلانكوليا. إن التعيينات مع الموضوع ليست بالنادرة بأي حال من الأحوال في الأعصبة الطرحية أيضًا؛ وهي في الواقع ميكانيزما جد معروف في تكوين الاعراض المرضية، خاصة في حالة الهستيريا. ومع ذلك، يمكن رؤية الفرق بين التعيين النرجسي والتعيين الهستيري في هذا: أنه في حين يتم التخلي عن شحن- الموضوع في التعيين النرجسي، فإنه في التعيين الهستيري يبقي يستمر شحن- الموضوع ويظهر تأثيره، حتي على الرغم من أن هذا التأثير يقتصر عادة على بعض التصرفات المعزولة والتعصيبات (الهستيرية). وعلى أيه حال، فإن التعيين في الاعصبة الطرحية يكون، ايضا، هو تعبير عن

تضافر لوجود شيء ما مشترك، قد يشير إلى الحب ويعنيه. إن التعيين النرجسي يعتبر هو التعيين الأقدم بين الاثنين ويمهد السبيل لفهم التعيين الهستيري، الذي لم تتم دراسته بعد بشكل واف.

لذلك، فإن الميلانكوليا تستعير بعض من سماتها من الحداد، والبعض لأخر من عملية نكوص من اختيار موضوع- نرجسي إلى نرجسية. إن الميلانكوليا هي من ناحية ما، يكون شأنها شأن الحداد، ردة فعل على خسارة واقعية لموضوع- محبوب؛ لكنها، علاوة على ذلك، تتميز بمحدد ما (شرط) يغيب في الحداد العادي أو محدد ما، إن وجد، يحول الأخير (الحداد العادي) إلى حداد مرضي (باثولوجي). إن فقدان موضوع -الحب يعد هو الفرصة الممتازة المواتيه للفت الانتباه الي الثنائية الوجدانية (التناقض الوجداني) في علاقات- الحب وابرازها حتي تجعل من نفسها فاعلا وتخرج إلى العلن. اينما يكون هناك ميل أو استعداد إلى العصاب الوسواسي، فإن الصراع الناشئ عن التناقض الوجداني يعطي مظهرًا مرضيًا للحداد ويجبره على التعبير عن نفسه في شكل لوم وتوبيخ ذاتي للاثر الذي مفاده أن الشخص الذي يفجعه الحداد يلوم نفسه وذاته كونه المسؤول عن فقدان الموضوع- المحبوب، أي: أنه هو من شاء ذلك وسعي اليه. إن حالات الاكتئاب الوسواسية هذه التي تتبع وفاة شخص محبوب تظهر لنا ما الذي يمكن أن يحققه الصراع الذي ينشأ عن التناقض الواجداني نفسه ويقوم به عندما لا يكون هناك ايضا انسحاب نكوصي في الليبيدو. في حالة الميلانكوليا، تمتد الأحداث التي تؤدي إلى المرض في معظمها إلى ما هو أبعد من حالة الخسارة الواضحة بسبب الوفاة، وتشمل جميع حالات الاستياء والاستخفاف التعرض للإهانة أو الإهمال أو خيبة الأمل، والتي يمكن أن تُدخل مشاعر متضاربة من الحب والكراهية إلى العلاقة، أو تعمل علي تعزيز ضربا من التناقض الوجداني الموجود والقائم بالفعل. إن هذا الصراع الناشئ عن التناقض الوجداني، والذي ينشأ أحيانًا كثيرة عن خبرات واقعية، وأحيانًا أكثر من عوامل تشكلية بنيويه، لا يجب إغفاله من بين الشروط المسبقة للميلانكوليا. إذا لجأ حب- الموضوع – ذلك الحب الذي لا يمكن التخلي عنه حتى ولو تم التخلي عن الموضوع نفسه- إلى التعيين النرجسي، حينئد تنشط الكراهية وتعمل عملها ضد هذا الموضوع البديل، فتسيء إليه وتهينه وتجعله يعاني ويقاسي وتستجلب له ضربا من الاشباع السادي الذي يُستقي من خلال معاناته. إن تعذيب النفس في حالة الميلانكوليا، وهو أمر ممتع بلا شك، له معنى، تمامًا شأنه في ذلك شأن الظاهرة المماثلة في العصاب الوسواسي، التي هى ضربا من إشباع الميول السادية والكراهية المرتبطة بموضوع ما، والتي قد إنقلبت علي عاقبيها ضد ذات الشخص نفسه على النحو الذي قد ناقشناه. إن في كلا الاضطرابين، عادة ما ينجح المرضى، عبر طريق سلوك العقاب الذاتي الملتوي وغير المباشر، في الانتقام والثأر من الموضوع الأصلي وفي تعذيب أحبائهم من خلال مرضهم، بعد أن يكونوا قد لجأوا إليه لتجنب الحاجة إلى التعبير عن عدائهم له بشكل علني. بعد كل شيء، فإن الشخص الذي تسبب في الإضطراب المشاعر الوجدانية للمريض، والذي ترتكز عليه وضعية مرضه وتتوجه اليه، عادة ما يكون متواجدا في بيئته المباشرة للمريض. وهكذا فإن النزعة الشبقية لدى الميلانكولي فيما يتعلق بالموضوع تكون قد خضعت لضرب من التقلب المزدوج: جزء منه قد نكص وارتد الى التعيين، ولكن الجزء الآخر، تحت تأثير الصراع الناشئ الناجم عن التناقض الوجداني، تم رده عائدا الي مرحلة السادية الأقرب إلى ذلك الصراع.

إن هذه السادية وحدها الكفيله بأن تحل لنا لغز النزوع الي الانتحار الذي يجعل من الميلانكوليا مثيرة للاهتمام- ومن ثم خطرة ايضا. إن حب الأنا لذاتها يكون حبا جما (جد هائل)، والذي أصبحنا ندركه باعتباره الحالة الأساسية الاولية التي تنبع منها الحياة الغريزية وتنطلق، وعظيم جدًا هو مقدار الليبيدو النرجسي الذي نراه ينطلق ويتحرر في الخوف الذي ينشأ عندما تكون الحياة مهددة، لدرجة أننا لا نستطيع ان نتخيل كيف يمكن لهذه الأنا أن توافق على تدمير نفسها وفنائها. لقد عرفنا منذ زمن طويل، وهذا حقيقي، أنه لا يوجد من شخص عصابي يحمل أفكارًا انتحارية إلا وقد ارتدت هذه الأفكار على نفسه وانقلبت من خلال دوافع قاتلة ضد الآخرين، لكننا لم نتمكن أبدًا من شرح تفاعل القوى التي يمكن أن تؤدي إلى النهاية لمثل هذا الهدف عن طريق فعل التنفيذ. يُظهر لنا تحليل الميلانكوليا الآن أن الأنا لا يمكنها أن تقتل نفسها إلا إذا استطاعت وتمكنت، بسبب عودة شحن- الموضوع وارتداده، من أن تعامل نفسها كموضوع - إذا أصبحت قادرة على توجيه العداء الذي يتعلق بالموضوع ويرتبط به ضد نفسها (ذاتها)، ذلك العداء الذي يمثل ردة فعل الأنا الأصلي تجاه الموضوعات في العالم الخارجي. وهكذا، فإنه عند النكوص والارتداد من اختيار- الموضوع النرجسي، فإنه يكون قد تم التخلص من الموضوع، وهذا حقيقي، حتى وان بقي مع ذلك يثبت أنه أكثر قوة من الأنا ذاتها. في الحالتين أو الموقفين المتنافضين المتمثلتين في الحب الشديد من جهة، والانتحار من جهة أخري، يطغى الموضوع على الأنا ويغمرها، وإن كان ذلك بطرق مختلفة تمامًا.

وأما فيما يتعلق بملمح الميلانكوليا الخاص والمميز والفريد الذي أشرنا اليه آنفا، والذي يتمثل في هيمنه حالة من الخوف من الفقر، يبدو من المعقول افتراض أنه مستمد من الشبقية الشرجية التي تم إخراجها من سياقها وتحويلها في معنى نكوضي رجعي ارتدادي.

إن الميلانكوليا تواجهنا بمشاكل أخرى، وإجاباتها بعيدة عن متناولنا جزئيا. إن حقيقة أن الميلانكوليا تنقضي بعد فترة زمنية معينة وتمر دون أن تترك آثارا لأي تغييرات خطيرة لهي سمة مشتركة تتقاسمها مع الحداد. ولقد وجدنا بالتفسير أنه في وقت الحداد تكون هناك حاجة إلى وقت لتنفيذ الأمر من خلال فحص الواقع واختباره بالتفصيل، وإنه عندما يتم إنجاز هذا العمل تكون الانا قد نجحت في تحرير الليبيدو الذي كان يربطها بالموضوع المفقود. يمكننا أن نتخيل أيضا أن الانا تكون منشغله بعمل مماثل خلال مسار الميلانكوليا؛ وفي كلتا الحالتين، ليس لدينا أي فكرة عن اقتصاديات مسار الأحداث وما يجري هنا وهناك. يبقي الأرق في الميلانكوليا يشهد على صلابة الحالة، واستحالة التأثير على السحب العام للشحنة اللازمة للنوم. إن عقدة الميلانكوليا تعمل مثل جرح مفتوح، تجذب إلى نفسها شحنات طاقاتية- والتي نسميها في الأعصبة الطرحية "شحنات طاقانية مضاده"- من جميع الاتجاهات، مما يؤدي إلى إفراغ الأنا حتى تصبح فقيرة تمامًا. ويمكن بسهولة إثبات مقاومة رغبة الأنا في النوم.

وما قد يشكل عاملاً جسديًا، ولا يمكن تفسيره سيكولوجيا، يتجلى في التحسن المنتظم الذي يحدث مع دخول المساء. إن هذه الاعتبارات تستثير سؤالا عما إذا كان ثمة فقدان في الأنا بغض النظر عن الموضوع - أي ضربة نرجسية بحتة للأنا - قد يكون كافيا لخلق صورة الميلانكوليا،

وعما إذا كان الإفقار المباشر لليبيدو-الأنا عن طريق السموم قد يكون قادرة على إنتاج أشكالا معينة من المرض.

إن السمة الاكثر بروزا في الميلانكوليا، والأكثر غرابة وتحتاج إلى تفسير، تتمثل في ميل الميلانكوليا إلى التحول والالتفاف إلى حالة هوس- وهي حالة تقف على النقيض مع الميلانكوليا في أعراضها. وكما نعلم، فإن هذا لا يحدث لكل مريض ميلانكولي. فهناك بعض الحالات التي تأخذ مجراها في انتكاسات نوابية دورية، دون ان يكون هناك فيما بينها أي علامات على حالة من الهوس أو قد تكون طفيفة جدا ان وجدت. وهناك بعض أخر من المرضي يظهرون تناوبًا منتظمًا لفترات من الميلانكوليا وفترات من الهوس مما يؤدي إلى فرضية وجود الجنون التناوبي (ثنائي القطب). وربما قد يتعرض المرء لاغراء اعتبار ان هذه الحالات غير نفسية المنشأ في الأصل، لولا أن أسلوب التحليل النفسي كان قد نجح في إيجاد الحل وإحداث تحسن علاجي في عدة حالات، من هذا النوع بالذات. لذلك، ليس هذا مسموحًا به فحسب، بل يجب علينا أن نوسع من تفسير التحليل النفسي للميلانكوليا ليشمل الهوس أيضًا.

أنا لا يمكنني أن اقطع بالوعد أن مثل هذه المحاولة سوف تكون مرضية تماما. إذ انها بالكاد تحملنا إلى ما هو أبعد من إمكانية اتخاذ المرء اتجاهات أولية. لدينا أمران يجب أن نستمر فيهما: الأول وهو انطباع تحليلي نفسي، والثاني هو ما يمكن أن نسميه مسألة تجربة وخبرة اقتصادية عامة. إن الانطباع الذي يعبر عنه العديد من الباحثين في مجال التحليل النفسي هو أن محتوى الهوس لا يختلف عن محتوى الميلانكوليا، وأن كلا الاضطرابين يكافحا ويصارعا نفس "العقدة"، ولكن من الممكن أنه في حالة الميلانكوليا تكون الأنا قد استسلمت للعقدة ووقعت ضحيتها بينما في الهوس تسيطر عليها أو تدفعها جانبًا. أما مؤشرنا الثاني يتأتي من خلال ملاحظة أن جميع الحالات مثل المرح أو البهجة أو الانتصار،التي تعطينا النموذج الطبيعي للهوس، تعتمد على نفس الظروف الاقتصادية. وما يحدث هنا هو أن، نتيجة تأثير ما، يتم إنفاق كمية كبيرة من الطاقة النفسية، التي كان يتم الاحتفاظ بها لفترة طويلة أو التي كانت تحدث بشكل معتاد، وقد أصبحت بحكم العاده غير ضرورة، بحيث تكون قد أصبحت آنذاك جاهزة للتطبيقات العددية ولإمكانيات التفريغ- فعلى سبيل المثال، عندما يكون هناك بعض الفقراء البائسين الذين، بكسبهم مبلغا كبيرا من المال، يرتاحون فجأة وقد تخلصوا من القلق المزمن المرتبط بلقمة العيش، أوعندما يتوج كفاح طويل ووصراع شاق بالنجاح، أو عندما يجد المرء نفسه في وضعية تمكنه ، بضربة واحدة، من التخلص من الهزيمه بالهروب من وطأة الإكراه القمعي و من بعض مواقف الرياء والمداراه الخاطئة التي كان عليه أن يحتفظ بها لفترة طويلة وما إلى ذلك. إن جميع هذه المواقف تتميز بارتفاع الروح المعنوية وإشارات إطلاق مشاعر الفرح وزيادة الاستعداد لمختلف أنواع التصرفات- تماما بنفس الطريقة التي تحدث في حالة الهوس، وفي تعارض وتناقض تام لما يحدث في الميلانكوليا من اكتئاب وكف (تثبيط). وقد نغامر ونجرؤ لنؤكد على أن الهوس لا يعدو أن يكون انتصارا من هذا النوع، ولكن هنا ومرة أخرى يظل مخفيا محجوبا عنه ما قد تغلبت عليه الأنا وما قد انتصرت عليه. إن حالة التسمم الكحولي (النشوة)، التي تنتمي إلى نفس الفئة من الحالات، يمكن تفسيرها بنفس الطريقة (بقدر ما هى مبهجة)؛ من المحتمل أن يكون هناك تعليقا، تنتجه التسمم، في إنفاق الطاقة في عملية الكبت. يحب الرأي العام التأكيد على أن الشخص الذي

يعاني من حالة هوسية من هذا النوع أن يجد متعة كبيرة في الحركة والفعل لأنه في غاية "الابتهاج والبهجة". ويجب على المرء بطبيعة الحال أن يقوم بتصحيح هذا الارتباط الزائف. والحقيقة أن الحالة الاقتصادية في ذهن الشخص المشار إليه أعلاه قد تحققت، وهذا هو السبب الذي يجعله في حالة معنوية عالية من جهة وغير مقيد بالعمل وبلا كف من جهة أخرى.

وإذا جمعنا هذين التلميحين معاً، فإن التالي هو ما نجده: في حالة الهوس، يجب على الأنا أن تتغلب على فقدان الموضوع (أو الحداد على الخسارة، أو ربما الشيء ذاته)، وبالتالي سوف يصبح بإمكان الانا أن يتوفر لها كامل حصة الشحن المضاد التي كانت معاناة الميلانكوليا المؤلمة قد استخلصتها لنفسها من الانا و "تصبح تحت تصرفها". علاوة على ذلك، تُظهر الذات الهوسية بوضوح تحررها من الموضوع الذي كان سببًا لمعاناتها، من خلال البحث مثل رجل جائع بنهم ملتهما شحنات- موضوع جديدة.

من المؤكد أن هذا التفسير يبدو عقلانيا، لكنه أولا يعتبر غير محدد تماما، وثانيا، يثير مشاكل وشكوكا جديدة تتعدي قدرتنا في الإجابة عليه. ومع ذلك، لن نتجنب هنا مناقشة هذه الأمور، رغم أننا لا نستطيع أن نتوقع أنها ستقودنا إلى فهم واضح.

بداية وفي المقام الأول، يتغلب الحداد الطبيعي، أيضًا، على فقدان الموضوع، كما أنه ايضا يمتص، أثناء استمراره وطيلة وجوده، كل طاقات الأنا. فلماذا، إذن لا يوجد في حاة الحداد، بعد إنقضاء مسارة وانقطاعه، ما يدل على أن الوضع الاقتصادي في مرحلة النصر؟ أنا أجد أنه من المستحيل الرد على هذا الاعتراض على الفور وبشكل سريع. كما أنه يلفت انتباهنا ايضا الي حقيقة أننا لا يمكننا ان نعرف حتى ذكر الوسائل الاقتصادية التي يؤدي بها الحداد مهمته ويمارسها. ولكن ربما يمكن أن يساعدنا التخمين هنا. إن كل ذكري من الذكريات وحالات التوقع التي تثبت ارتباط الليبيدو وتعلقه بالموضوع المفقود لا تتخلص من الحكم الواقعي بأن الموضوع لم يعد قائما موجودًا؛ وسوف تكتفي الأنا، عند مواجهتها بالتساؤل حول ما إذا كانت تريد أن تلقي نفس المصير أو ستشارك فيه، بمجموع الإشباعات النرجسية التي تستمدها من كونها حية على قيد الحياة وهي تقطع تعلقها وارتباطها بالموضوع الذي تم إلغاؤه. ربما يمكننا أن نفترض أن عملية الانفصال هذه والقطع بطيئة وتدريجية لدرجة أنه بحلول وقت اكتمالها، يكون استهلاك الطاقة اللازم لها قد تبدد أيضًا.

من المغري المواصلة انطلاقا من هذا التخمين بشأن عمل الحداد والسعي نحو محاولة تقديم تفسير لعمل الميلانكوليا. هنا سرعان ما نواجه في البداية حالة من الحيرة وعدم اليقين. خاصة ونحن بالكاد قد تناولنا الميلانكوليا من وجهة نظر طبوغرافية، ولم نسأل أنفسنا عن أي داخل، وفيما بين اي نظام من الأنظمة النفسية تواصل الميلانكوليا عملها. أي جزء من العمليات النفسية للمرض لا يزال يبقي يحدث فيما يتعلق بشحنات-الموضوع اللاشعورية التي كان قد تم التخلي عنها، وأي جزء فيما يتعلق ببديلها في الانا، عن طريق التعيين؟

إن الإجابة السريعة والسهلة هي أن التمثيل اللاشعوري للموضوع قد تم التخلي عنه بسبب هجران الليبدو. ومع ذلك، يتكون هذا التمثيل في الواقع من انطباعات فردية يطول عددها (أو آثار لاشعورية لها)، وهذا السحب لليبيدو ليس بعملية يمكن إنجازها في لحظة، ولكن يجب أن يكون بالتأكيد، كما هو الحال في الحداد، سحبا ممتدا طويل الأمد ويتقدم تدريجيًا. وليس من السهل تحديد وتقرير ما إذا كان سوف يبدأ هذا السحب وينطلق في نفس الوقت في عدة أماكن أو نقاط أو سيتبع نوعًا من التسلسل الثابت؛ في التحليلات النفسية، غالبًا ما يكون من الواضح أن ذاكرة واحدة يتم تنشطها ثم يتبعها ذكريات أخرى، كما أن الرثاء والنواح والشكاوي المنهكة التي يبدو دائمًا انها تدوي بصداها هي هي نفسها وتكون مرهقًة في رتابتها حتي علي الرغم من أنها ينشأ وتقع في كل مرة عن مصدر لاشعوري مختلف. فلو لم يكن المزضوع يمتلك مثل هذه الأهمية الكبيرة بالنسبة للانا - وهي أهمية تعززها آلاف الارتباطات- فإن خسارتها آنذاك لن تكون أيضًا من النوع الذي يسبب ايا الحداد أو الميلانكوليا. ومن ثم فإن خاصية فصل الليبيدو وقطعه سوفيتم عزوها شيئًا فشيئًا إلى الحداد والي الميلانكوليا معًا؛ وقد يدعم ذلك نفس الوضع الاقتصادي ويخدم نفس الأغراض في كليهما.

وكما رأينا آنفا، فإن الميلانكوليا تقترن بشيء ما أكثر من الحداد الطبيعي. في حالة الميلانكوليا، لا تكون العلاقة مع الموضوع علاقة بسيطة؛ فالامر معقد جراء الصراع نتيجة التناقض الوجداني. إن التناقض الوجداني إما أن يكون تأسيسيا بنيويا، أي يكون عنصرا عالقا في كل علاقة حب تشكلها هذه الأنا خاصة، أو أنه ينشأ على وجه التحديد من تلك الخبرات التي تنطوي على التهديد بفقدان الموضوع. ولهذا السبب، فإن الأسباب المحفزة المثيرة للميلانكوليا تكون ينطوي على نطاق أوسع بكثير من أسباب الحداد، الذي يحدث في معظمه فقط جراء خسارة واقعية للموضوع، بسبب وفاته. أما في حالة الميلانكوليا، وفقًا لذلك، تدور رحي عدد من صراعات منفصلة لا حصر لها حول الموضوع، حيث يتصارع فيها الكراهية والحب مع بعضهما البعض؛ يسعى الأول إلى فصل الليبيدو وعزله عن الموضوع، في حين يُبقي الآخر على وضعية الليبيدو هذه ضد الاعتداء والهجوم. لا يمكن تحديد موقع هذه التعاركات والنضالات المنفصلة وعزوها لاي نسق آخر غير النسق اللاشعوري، الموقع الذي منه تكون الاثار الذكروية **للشيء** (في مقابل شحنات-الكلمة). وفي الحداد أيضًا تُبذل الجهود لفصل الليبيدو في نفس النسق؛ولكن لا يوجد فيه ما يمنع هذه العمليات من السير في مسارها الطبيعي عبر نشق القبشعور وصولا إلى الوعي. إن مسار العمل هذا بالنسبة للملانكوليا محظور ويتم سده، ربما نتيجة لعدد من الأسباب أو مجموعة منها. أن التناقض الوجداني التأسيسي البنيوي ينتمي بطبيعته إلى المكبوت؛ وربما تكون الخبرات الصدمية المرتبطة بالموضوع قد عملت على تنشيط مواد أخرى مكبوتة. وبالتالي فإن كل ما يتعلق بهذه الصراعات والنضالات جراء التناقض الوجداني يبقى منسحبا منفصلا عن الوعي، حتى تتجلي النتيجة المميزة للميلانكوليا. وهذا، كما نعلم، يتكون من شحنه ليبيدية مهددة ومعرضة للخطر على طول مسار التخلي عن الموضوع وهجرانه، وذلك فقط لتعود، مع ذلك، إلى ذلك المكان في الانا الذي منه كانت قد انطلقت وانبثقت. لذلك، فإنه بالتحليق داخل الأنا والهروب نحوها، ينجو الحب من الانقراض والانطفاء. ومن بعد هذا النكوص في الليبيدو، يمكن للعملية أن تصبح شعورية، ويتم تمثيلها للوعي وتقديمها كونها ضربا من صراع بين جزء من الأنا والوكالة الفاعلة النقدية فيها.

إن ما يدركه الوعي ويفطن اليه في عمل الميلانكوليا ليس هو إذن الجزء الأساسي منها، ولا حتى الجزء الذي يمكن أن ننسب إليه تأثيرًا في إنهاء المرض وانهاء المعاناة. فنحن نري أن الأنا تحتقر نفسها وتحط من شأنها وتغضب من نفسها ولا تفهم إلا القليل، شأنها في ذلك شأن المريض، إلى ما يمكن أن يؤدي إليه هذا وكيف يتغير. ويمكننا أن نعزو مثل هذه الوظيفة بسهولة إلى الجزء **اللاشعوري** من العمل، لأنه ليس من الصعب إدراك تشابه جوهري بين عمل الميلانكوليا والحداد. وتماما كما أن الحداد يدفع الأنا إلى التخلي عن الموضوع من خلال إعلان موت الموضوع وتوفير حافز أو مكافأة للأنا لتبقي مستمرة تعيش الحياة، فإن كل نضال من نضالات التناقض الوجداني يقوم بالتخفيف والتقليل من تثبيت الليبيدو بالموضوع عن طريق التقليل من قدره، والتحقير من شأنه، وحتى كما لو كان الامر يبدو يبلغ الي قتله. من الممكن لهذه العملية في اللاشعور أن تبلغ نهايتها، سواء كان ذلك بعد أن يكون الغضب قد استهلك نفسه وخمد، أو بعد ان يتم هجران الموضوع التخلي عنه باعتباره لا قيمة له. لا يمكننا أن نعرف أي من هذين الاحتمالين هو الاحتمال المعتاد أو الأكثر شيوعًا لإنهاء الميلانكوليا وأفولها، ولا ما هو تأثير هذا الإنهاء والأفول على المسار المستقبلي للحالة. وفي هذا يمكن للأنا أن تتمتع بالرضا جراء تعرفها لنفسها على أنها الأفضل من الاثنين، باعتبارها متفوقة على الموضوع.

وحتى لو سلمنا وقبلنا وجهة النظر هذه بشأن عمل الميلانكوليا، فإنه لما تزل تبقي لاتقدم تفسيرًا لنقطة وحيدة متعلقة بها كنا نبحث عن ايضاحها والقاء الضوء عليها. لقد كان توقعنا هو أن الحالة الاقتصادية لظهور الهوس بعد انقضاء االميلانكوليا يمكن العثور على مساره في التناقض الوجداني الذي يهيمن ويسيطر على وجدان الميلانكوليا؛ وفي هذا وجدنا دعمًا للقياسات والمماثلات في مجالات أخرى مختلفة. ولكن يبقي هناك ثمة حقيقة واحدة حري بنا أن ننحني أمامها وينخفض هذا التوقع. إن من بين الشروط الثلاثه المسبقة للميلانكوليا– فقدان الموضوع، والتناقض الوجداني، ونكوص الليبيدو وارتداده إلى الأنا – نجد ان الشرطين الأوليين أيضًا قائمين وتواجدين في توبيخات- الذات الوسواسية التي تنشأ عقب حدوث حالات موت. ففي مثل هذه الحالات، يكون التناقض الوجداني هو بلا شك القوة الدافعة المحفزة للصراع، وتبين الملاحظة أنه بعد انتهاء الصراع وبلوغ نهايته، لم يبق من شيء في طبيعة انتصار حالة العقل الهوسية. وولهذا فقد تحولنا إلى العامل الثالث على انه العامل الوحيد المسؤول عن النتيجة. ينبغي ربط تراكم وتكدس الشحن الطاقاتي الذي يكون في البداية مقيدا مرتبطا وبعد ذلك يصبح حرا طليقا ويجعل من حالة الهوس مكنة، بعد انتهاء من عمل الميلانكوليا وأفولها، يتبغي أن يتم ربطه مع نكوص الليبيدو الي النرجسية. إن الصراع داخل الأنا، حيت يتم استبدال الميلانكوليا لتحل محل الصراع على الموضوع، لا بد أن يكون جرحا مؤلما يستدعي قدرا كبيرا جدا من الشحن المضاد.- ولكن هنا مرة أخرى، سيكون من الجيد الدعوة إلى وقفة وتأجيل أي توضيح إضافي للهوس حتى نكتسب بعض الاستبصار والرؤية بشأن الطبيعة الاقتصادية، أولًا، للألم البدني، ثم للألم العقلي الذي يكون مماثلا له. وكما نعلم بالفعل، فإن الترابط المتداخل بين مشاكل العقل المعقدة يجبرنا على مقاطعة كل تحقيق والتوقف عنده قبل اكتماله - حتى تأتي نتيجة تحقيق آخر لمساعدته ومساندته.

تمت في ١٦/ ١٢/ ٢٠٢٣